

اجتهادات هل التسامح خطأ؟

ضبط المصطلحات والمفاهيم ضرورى لفهم الواقع وتحليله، وليس ترفاً نظرياً وفكرياً. ورغم أن مصطلح التسامح أصبح مستقراً فى الفكر الإنسانى، والعلم الاجتماعى، من حيث مدلوله، يُثار جدل من وقت إلى آخر فى منتديات عربية حول صحته، كما حدث فى منتدى الاتحاد الرابع عشر، الذى عُقد فى أبو ظبى الأسبوع الماضى.

فقد طلب أحد المشاركين مراجعة هذا المصطلح، وجادل بأنه ينطوى على استعلاء من حيث إن هناك من يسامح (بكسر الميم)، ومن يُسامح (بفتحها)، ودعا إلى استخدام مصطلح يراه أكثر تعبيراً عن معنى الاحترام والتنوع والتعدد والاختلاف. ورأى أن مصطلح العيش معاً أفضل فى التعبير عن هذا المعنى.

وخلال مناقشة الموضوع، أوضحت أنه لا يوجد استعلاء فى مصطلح التسامح، لأن الأساس الذى يقوم عليه هو أن الجميع يسامح بعضهم بعضاً لأن كل إنسان يمكن أن يخطئ فى حق الآخر. ومادام هذا شائعاً، يمكن لشخص أخطأت فى حقه أن يسامحنى، والعكس أيضاً، أى أن أسامحه فى حالة كان الخطأ من جانبه.

وذكرت بأن أصل هذا المعنى يعود إلى فولتير فى منتصف القرن الثامن عشر عندما رأى أن الكائن البشرى لا يكون إنساناً إلا إذا صار التسامح

جزءاً من شخصيته، وكتب أن (الإنسان قابل لارتكاب الخطأ، ولا بد بالتالي (أن يُسامح بعضنا بعضاً بشكل متبادل).

وانطلق كارل بوبر، بعد قرنين على رحيل فولتير، من فكرة أننا كلنا لا نخطئ فقط، بل قد ننادى أيضاً باقتراف الخطأ، لتأسيس مبدأ التسامح على ثلاثة عناصر جوهرية. أولها أنني قد أكون مخطئاً، وقد تكون أنت على صواب. وثانيها أننا حين نتحاور بشكل عقلاني قد نُصحح أخطاءنا. والثالث أن هذا الحوار يساعدنا في أن نقرب معاً من الحقيقة.

التسامح، إذن، لا يكون من جانب واحد. فليس هناك من لا يخطئ أبداً. ولذا يبقى التسامح هو المصطلح المناسب لأنه يعبر عن حالة التفاعل المجتمعي، بخلاف مصطلح العيش معاً (أو العيش المشترك) الذي يعبر عن حالة يتجاوز فيها المتعايشون، ولا يتضمن معنى التفاعل الحر الذي يحقق الاندماج في مجتمع واحد.